

من أخبار المسافرين (٢٩) مظلومة تسافر إلى المأمون

قال قحطبة بن حميد: إني لواقف على رأس المأمون يومًا وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه - وقد همَّ بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم، فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله! تكلمي بحاجتك، فقالت:

يا خَيْرَ مُتَّصِفٍ يُهْدِي لهُ الرِّشْدُ وَيَا إِمَامًا بِهِ قَدْ أَشْرَقَ الْبَلَدُ
تَشْكُو إِلَيْكَ عَمِيدَ الْقَوْمِ أَرْمَلَةً عُدِي عَلَيْهَا فَلَمْ يُتْرَكْ لَهَا سَبْدُ
وَابْتَرَّ مِنِّي ضِيَاعِي بَعْدَ مَنَعَتِهَا ظُلْمًا وَفُرْقَ مِنِّي الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ
فَاطْرَقَ الْمَأْمُونُ حِينَ ثَمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا وَهُوَ يَقُولُ:

فِي دُونَ مَا قَلَبَ زَالَ الصَّبْرُ وَالْجَلْدُ عَنِّي وَأُقْرِحَ مِنِّي الْقَلْبُ وَالْكِبْدُ
هَذَا أَذَانُ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَأَنْصِرْ فِي وَأَخْضِرِي الْخَضَمَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَعِدُ
فَالْمَجْلِسُ السَّبْتُ إِنْ يُقْضَى الْجُلُوسُ لَنَا نُنْصِفُكَ مِنْهُ وَإِلَّا الْمَجْلِسُ الْأَحَدُ

قال: فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول ما قدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام، ثم قال: أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت إلى العباس ابنه، فقال: يا أحمد بن أبي خالد! خذ بيدي فأجلس معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله! إنك بين يدي أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير العباس فأخفضي من صوتك، فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، ثم قضى لها برَد ضيعتها إليها وعاقب ابنه العباس بسبب ظلمه لها وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة.

اتق الله حيثما كنت

أخي المسافر بارك الله فيك ويسّر لك الخير حيثما كنت وبارك فيك ورزقك الرزق الحلال وحفظك في نفسك وأهلك ومالك .

خف الله وانظر في صحيفتك التي حوت كلما قدمته من فعالكا فقد خط فيها الكاتبان فأكثرنا ولم يبق إلا أن يقولوا فذالكا ووالله ما تدري إذا ما لقيتها أتوضع في يمينك أو في شمالكا فلا تحسبن المرء يبقى مخلداً فما الناس إلا هالك فابك هالكا أرجوك أن تسمح لكلمات قليلات أن تنساب إلى قلبك، وأن تفتح لها صدرك وترخي لها سمعك كُليمات من القلب فعسى أن تصل إلى القلب أناديك نداء المحب، وأدعوك دعاء المشفق، وأرجوك رجاء الصادق، وأخاطبك خطاب الأخ المخلص، وأناجيك مناجاة الحريص عليك، أوجه إليك هذا النداء أينما كنت فلعلك الآن تقرأ كلماتي وأنت في الطائرة معلق بين السماء والأرض، بين الحياة والموت، على جناح طائر، وقد تمرّ بك هذه العبارات وأنت في عمق الصحراء، تطوي المسافات، وتقطع الفيافي، وربما اطلعت عليها وأنت في لُج البحر، تصارع الأمواج، وتركب الأهوال إنني أناديك أخي المسافر في أي مكان أنت وعبر أي طريق اتجهت وعلى أية راحلة ركبت، أناديك وأذكرك فأقول لك :

اتق الله، اتق الله، اتق الله.

اتق الله في نفسك فالزمها بما يرضي الله .

اتق الله .. في أهلك فكن عند حسن ظنهم .

اتق الله .. في أبنائك فإن صلاحك صلاح لهم، وطاعتك صيانة لهم .

اتق الله .. في وقتك فلا تصرفه في اللهو والعبث والضياع، فأنت مسئول

عنه .

اتق الله .. في مالك فلا تنفقه في الحرام ، ولا تضيّعه في الضلال فأنت مسئولٌ .

أناديك يا عبدالله فأقول لك : إلى أين تسافر ولماذا تسافر ، هل أنت مسافر في طاعة أم راحل إلى معصية فإن كان سفرك طاعة لله بعيداً عما يسخط الله فالحمد لله وعلى بركة الله ، وإن كان سفرك في معصية الله وفي غير طاعته ورضاه . فاتق الله .. واستح من الله فإنه ينظر إليك ومطلع عليك ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ ، ألا تستحي منه ، وقد خلقك ورزقك ، وأطعمك وكساك ، وأعطاك وأغناك ، أعطاك السمع ، والبصر ، والفؤاد ، والجوارح وجعلك في أحسن تقويم فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان . قال ﷺ لأصحابه : « ألا تستحيون من الله حق الحياء » فقالوا : يارسول الله إننا لنستحي من الله حق الحياء . قال ﷺ : « ليس ذلك ، الاستحياء من الله : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، من فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

ياأيها المسافر الحبيب إن كنت تنوي المعصية في هذا السفر فإني أدعوك إلى الرجوع عنه أو تغيير هذه النية إني أدعوك إلى التوبة إلى الله تعالى إلى ربك الرحمن الرحيم مولاك ، الذي خلقك ورزقك ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ ، ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

إن الخنا دنسُ الثُّبُوس وإنني ومطامعُ الدنيا تُذلُّ ولا أرى من عفٍّ لم يُذمَّ ومن تبع الخنا طَهَّرْتُ هَذِي النَّفْسَ مِنْ أَدْنَاهَا شيئاً أعزُّ لمُهْجَةٍ مِنْ يَاسِهَا لَمْ تُخْلِهِ التَّبَعَاتُ مِنْ أَوْكَاسِهَا

زَيْنُ خِصَالِكَ بِالسَّمَّاحِ وَلَا تُرْدُ دُنْيَا تَرَكَ وَأَنْتَ بَعْضُ خِسَاسِهَا
وَمَتَى رَأَيْتَ يَدَ امْرِئٍ مَمْدُودَةً تَبْغِي مُوَاسَاةَ الْكَرِيمِ فَوَاسِهَا
خَيْرُ الْأَكُفِّ السَّابِقَاتِ بِجُودِهَا كَفْتُ تَجُودُ عَلَيْكَ فِي إِفْلَاسِهَا
أخي الحبيب . . إن المسلم العاقل هو من أعمل فكره، واعتبر بغيره،
فكم من أناس سافروا إلى بلاد معينة، لتوفر أسباب الحرام فيها، وسهولة
اقتراف المعاصي بها، فكان جزاؤهم الخيبة والخسران، والنقمة من
الديان، أصيبوا بالأمراض الخبيثة، وانتقلت إليهم الجراثيم الفتاكة، بما
كسبت أيديهم، وبما عصوا باريهم. المعصية لذة ساعة، وعذاب يوم
تقوم الساعة. فاتق الله والزم الطاعة، فإنها نعم البضاعة ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا
عَرَكَ بَرِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ
رَبُّكَ﴾ .

أخي المسافر أحذرك مما حذرنا الله منه ورسوله :

* أحذرك الشرك بالله فإن الشرك ظلم عظيم، وخطر جسيم، وهو الخطر
الأكبر والذنوب الذي لا يغفر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ .

«أكبر الكبائر الإشراك بالله وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وشهادة

الزور» .

لا تخف إلا من الله، لا ترجو إلا الله، لا تدعو إلا الله، لا تسافر إلى
القبور والأضرحة، ولا تدعو أحداً من دون الله . .

* واحذر الرياء فإنه محبط للعمل، مغضب للرب «من عمل عملاً أشرك
معني فيه غيري تركته وشركه» فإذا سافرت لطلب العلم فأخلص النية لله
تعالى، وإذا سافرت للحج أو العمرة أو غير ذلك من أسفار البر والطاعة
فاقصد بها وجه الله وإلا كانت عليك حسرة وندامة ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٦﴾ .

* احذر الزنا فإنه من أقبح الأمور، وأعظم الشرور ﴿١١٧﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١١٨﴾ ، يورث الفقر والمرض، ويؤذن بالغضب والسخط، ويعرض للمقت والهلاك. قال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»، «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

* احذر الربا، فهو حربٌ على الله، وتعرض لسخطه، ﴿١١٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ .
وقال ﷺ: «إن أبواب الربا اثنان وسبعون باباً أدناه كالذي يأتي أمه في الإسلام»، «لعن الله أكل الربا، وموكله، وشاهده، وكاتبه».

* احذر الخمر والمسكرات، فإنها خراب الدين، ودمار العقل، وإتلاف الصّحة، بغیضةٌ إلى الرحمن، رجسٌ من عمل الشيطان، نقصٌ في الدين والإيمان، ﴿١٢١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٢﴾ «إن الله لعن الخمر، وعاصرها ومعتصرها، وشاربها، وساقها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومشتريها، وأكل ثمنها»، «ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً: الديوث، الذي يرضى الخبث في أهله، ولا يغار عليهم، الرَّجُلَةُ من النساء، ومدمن الخمر».

أخي المسافر.. لا تتعامل بالحرام ولا تتاجر فيه، ولا تدخل إلى جوفك إلا ما كان حلالاً قال رسول الله ﷺ: «ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يرفع يديه إلى السماء ومأكله حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام يقول: يارب، يارب فأنى يستجاب له».

احذر من حب الكفار والمشركين أو الإعجاب بهم ولا يخدعك ما

تراهم فيه من حضارة أو فن أو زينة أو بهرج ﴿فَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ﴾.

أخي المسافر.. لا تسافر مع الذين أترعت قلوبهم بحب الشهوات،
ولا ترافق الذين خلت أفئدتهم من مراقبة رب الأرض والسموات ﴿وَاللَّهُ
يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا
عَظِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أخي المسافر.. لا تسع إلى حتفك بظلفك فتسافر بأبنائك وبناتك إلى
البلاد المتحللة من الفضيلة، المتجردة من الحياء ظناً منك أنك تسعى إلى
تسليتهم وترفيههم، وأنت إنما تسعى في ضياعهم وتدميرهم. إذا أردت أن
تروح عنهم فليكن ذلك في البلاد التي تعينك وإياهم على الطاعة، وتحفظ
عليك أخلاقهم وأديهم وسلوكهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ
غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

إنهم أمانة في عنقك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا
أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول».

وأخيراً أخي المسافر، الله الله في الصلاة فإنها عمود الإسلام، والركن
الثاني منه، الله الله في الصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. وهي أول
ما يُسأل عنه المرء. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾،

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ .

الصلاة هي الفارق بين المسلم والكافر . «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» الصلاة لأنها تكفر الذنوب وتذهب الخطايا، وتطهر القلوب وتزكي الأنفس «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء» قالوا: لا يبقى من درنه شيء . قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» [متفق عليه].

يقول الأستاذ مصطفى الرافعي عن الصلاة:

«بالانصراف إلى الصلاة وَجَمَعَ النِّيَّةَ عَلَيْهَا، يستشعر المسلم أنه حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرج منها إلى روحانية لا يُحَدُّ فيها إلا بالله وحده .

وبالقيام في الصلاة يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنه كائن منتصب مع الكائنات يسبح بحمده .

وبالتولي شطر القبلة في سَمَتِهَا الذي لا يتغير على اختلاف أوضاع الأرض، يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة؛ فيحمل قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقلقها .

والركوع والسجود بين يدي الله، يُشعر المسلم نفسه معنى الشمو والرفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون .

وبالجلسة في الصلاة وقراءة التحيات الطيبات، يكون المسلم جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويُسلم على نبيّه وملائكته ويشهد ويدعو .

وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة يُقْبَلُ المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً من جهتي السلام والرحمة .

هي لحظات من الحياة كلّ يوم في غير أشياء هذه الدنيا؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقت وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة، ولتمزيق الفناء خمس مرات كلّ يوم عن النفس؛ فيرى المسلم من ورائه حقيقة الخلود، فتشعر الروح أنها تنمو وتتسع. هي خمس صلوات، وهي كذلك خمس مرات يفرغ فيها القلب مما امتلأ به من الدنيا، فما أدق وأبدع وأصدق قوله ﷺ: «جعلت قرّة عيني في الصلاة» وقد كان النبي ﷺ يستبطن الصلاة وقد جاء وقتها، من شدة شوقه إليها فيقول: «أرحنا بها يا بلال» ولا أفصح ولا أدق في تصوير نفسيته وأشواق روحه العالية من قوله أرحنا بها. فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه اهـ.

وأخيراً.. أخي المسافر أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك، أسأل الله أن يحفظك في حلك وترحالك وأن يعيدك إلى أهلك سالماً غانماً فائزاً رابحاً موفقاً ناجحاً إنه سميع مجيب.